﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾ [النبأ: 10 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

في كلِّ آية، تدلُّ على وجوبِ الاعتبار والعِظَة

لمّا ذكرَ النّظمُ الكريم ما يَطَؤُهُ الإنسان من أرضٍ وجبال، وانتقلَ إلى خلقِ الإنسان نفسِهِ بهيئةِ الأزواج، وأنَّه ينامُ سابتًا بعدَ التّعَب والعَناء أرادَ النّظمُ الكريم بيانَ خلقِ ما يقَعُ ظرفًا لهذا الإنسان ممّا يُحيطُهُ ويَعلوه، فذكرَ اللّيلَ والنّهار، والسَّبعَ الشِّدادَ والنّجمَ الوهّاج. أوْ لمّا ذكرَ النّوم وما فيه من راحةٍ، أعقبَهُ بذكرِ أنسَبِ أوقاتِهِ، فذكّرهم بنعمةِ اللَّيل الَّذي جعلَهُ ظرفًا زمنيًّا للسَّكينة بعدَ أنْ ذكر لهم الأرضَ ظرْفًا مكانيًّا للقرار، فأبانَ بعظيمِ أثَرِه عظمةَ خالقِهِ، ولمّا ذكّرَهُم بالأرض وما جعلَ فيها من قرارٍ ومِهاد، أتبعَ ذلك بذكرِ السَّقفِ المَرفوع فوقَها، وهو السّماواتُ السَّبع، الّتي بدورانِها ينتظِمُ اللّيلُ والنَّهار، وفيها المصابيحُ المُضيئة والمنافعُ الجليَّة لإحياءِ الأرض ومَن عَلَيها، ولمّا ذكرَ السّقفَ المرفوع، أتبعَهُ بذكرِ أعظمِ ما فيه من المنافع الظّاهرة، وهي الشّمسُ الّتي جعلَها اللّه سراجًا وهّاجًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسًا﴾: أصلُ (لبس) يدلُّ على مُخالَطَةٍ ومُداخَلَةٍ، مِنْ ذَلِكَ: لَبِسْتُ الثَّوْبَ أَلْبَسُهُ، وهوَ الأصْلُ، ومِنْهُ تَتَفَرَّعُ الفُروعُ[1]، واللُّبْسُ بالضَّمِّ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ: لَبِسْتُ الثوبَ أَلْبَس، واللَّبْس، بالفَتْحِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ لَبَسْت عَلَيْهِ الأمرَ أَلْبِسُ خَلَطْت، واللِّباسُ: ما يُلْبَس، وكَذَلِكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبس).

المَلْبَس واللِّبْسُ، بالكَسْرِ، مثلُه[1]، وجُعِلَ اللّباسُ لكلّ ما يُغطّي الإنسانَ عن قبيحٍ حقيقةً أوْ مجازًا؛ تشبيها باللِّباس السّاتر، كما جُعِل الزّوجُ لزوجِهِ لِباسًا من حيثُ إنَّه يَمنَعُها ويَصدّها عن تعاطي القَبيح[2]، والمرادُ بقولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾: أي: سِترًا يَسترُكُم عن العُيون إذا أردتُم إخفاءَ ما لا تُحبّونَ الاطِّلاعَ عليهِ[3].

2) ﴿سِرَاجًا﴾: أصلُ (سرج) يدلُّ على الحُسْنِ والزّينَةِ والجَمالِ. مِنْ ذَلِكَ السِّراجُ، سُمّيَ لِضيائِهِ وحُسْنِهِ. ومِنْهُ السَّرْجُ لِلدّابَّةِ. هوَ زينَتُها. ويُقالُ سَرَّجَ وجْهَهُ، أيْ حَسَّنَهُ، كَأنَّهُ جَعَلَهُ لَهُ كالسِّراجِ[4]. والسِّراجُ: الزّاهر بفتيلةٍ ودُهْن، ويعبّر به عن كلّ مضيء، قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾ [نوح: 16]، ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾، يعني: الشمسَ. وأسرجْتُ السِّراجَ: أوقَدْتُه. وسرَجْتُ الشّيءَ: جعلتُهُ في الحُسْن كالسِّراج[5]. والمراد بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ أي: مُضيئًا بزهاءٍ واكتمال، والمرادُ هنا: الشّمسُ[6].

3) ﴿وَهَّاجًا﴾: أصلُ (وهج) يدلّ على كَلِمَةٍ واحِدَةٍ، وهي الوَهَجُ: حَرُّ النّارِ وتَوَقُّدُها. ويُسْتَعارُ ذَلِكَ فيُقالُ: تَوَهَّجَ الجَوْهَرُ: تَلَأْلَأ. وتَوَهَّجَتْ رائِحَةُ الطّيبِ، ووَهَجُ الطّيبِ: أرَجُهُ ورائِحَتُهُ. وسِراجٌ وهّاجٌ: وقّادٌ، وكَذَلِكَ نَجْمٌ وهّاجٌ[7]، والنّارُ تَهِجُ وهْجًا ووهَجانًا، اتَّقَدَتْ، والاسْمُ: الوَهَجُ، محرَّكةً، وتَوَهَّجَتْ وأوهَجْتُها. ولها وهيجٌ: تَوَقُّدٌ[8]. والوَهَجُ، بالتّحريك: حَرُّ النّار. والوَهْجُ بالتّسكين: مصدرُ وهَجَتِ النّارُ تَهِجُ وهْجًا ووَهَجانًا، إذا اتَّقَدَتْ[9]. و﴿وَهَّاجًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: مُشتعِلًا، و﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: مُضيئًا وقّادًا، أي جامِعًا للنّور والحَرارة، والمرادُ في الآية أنَّ الشّمسَ مُضيئةٌ ومُتّقِدةٌ[10].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (لبس).
(2) الرّاغب، المفردات: (لبس).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرج).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سرج).
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهج).
(8) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وهج).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (وهج).
(10) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وهج)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 590.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـن أوجَـدَ هذا النِّـظـام قـادرٌ على إعادتِهِ بعدَ الانهِدام

والمعنى: وجعَلْنا اللّيل ساتِرًا لكُم بظُلمتِهِ مثلَ اللِّباس الَّذي تَسترونَ به عَوراتِكُم. وجعلنا النَّهارَ مَيدانًا للكسبِ والبَحْث عن الرِّزق، وبنَينا فوقَكُم سبعَ سماواتٍ مَتينةِ البِناء مُحكمةِ الصُّنع، وصيَّرنا الشّمسَ مِصباحًا شديدَ الاتِّقاد والإنارةِ والضّياء.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّشبيهِ وغرضُهُ في (اللَّيل لِباسٌ):

اللّيلُ غِطاءٌ ساتِر ليعُـمَّ السُّكونُ والـــهـــدوءُ في الخاطِر

في قولِهِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تشبيهٌ بليغ؛ فاللَّيل شُبّهَ باللِّباس، أي: كما أنّ اللِّباسَ يُغطّي جسمَ الإنسان ويَسترُهُ ويُحيطُهُ، كذلك اللَّيلُ يَغشى النّاسَ بظَلامِهِ فيسترهُم ويُظلّهم. ووجهُ الشَّبه هنا هو التَّغشيةُ والسِّتر والإحاطةُ، والتَّشبيهُ بليغٌ؛ لأنَّ الكلام جرَى على صورة إثبات اسم المشبَّه بهِ (اللِّباس) للمشبَّه (اللَّيل) دونَ أداةِ تشبيهٍ أوْ وجهِ شبَهٍ مذكور، ممّا يقوّي المعنى ويجعلُ القارئ يتصوّرُ اللَّيل وكأنه لباسٌ حقيقيٌّ يَلبَسُه النّاسُ[1].

بلاغةُ إطلاقِ (اللِّباس) على (اللّيل):

أُطلِقَ على اللَّيل أنَّه لِباسٌ، وفي ذلك تشبيهٌ دقيقٌ من عدّةِ وُجوه:

مِن جهةِ السَّتر والتّغشية: فكما يَستُر اللِّباسُ الجسدَ، يَستُرُ اللَّيلُ الإنسانَ ويُخفي حركاتِه، فيُتيحُ له خُصوصيَّةً وسُكونًا لا يقدِرُ عليه في النَّهار، وهو تعريضٌ ببُطلانِ عقيدةِ المَجوس الَّذين يجعلونَ الظَّلام إلهًا مُستقِلًّا.

مِن جهةِ الرّاحةِ والمُلاءَمة: فكما يَلبسُ الإنسان لباسًا مُريحًا للنّوم، فاللَّيلُ ذاتُهُ نظامٌ ربانيٌّ مُحاطٌ بالسَّكينة، يهيّئ الرّاحةَ لجميعِ الحواسّ والأعصاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 20.

مِن جهةِ الوِقاية والحِماية: إذ كان العربُ لا يُغير بعضُهم على بعضٍ ليلًا، وجَعلوا النَّهارَ والصباحَ زمنًا للحربِ، فجاءَ اللّيلُ وقايةً من الأخطار تمامًا كما يقي اللِّباسُ الإنسانَ من المُؤذيات[1].

من جهةِ الاستدلال: فكما أنَّ النّومَ سُباتٌ واللّيلَ لباسٌ؛ فإنَّ الموتَ سُباتٌ والقبرَ لباسٌ، ويَعقبُ النّومَ النّهارُ للمَعاش؛ فكذا يَعقبُ الموتَ البعثُ والنّشرُ بعدَ طول السُّبات للجَزاء والحِساب.

دلالةُ التَّعريضِ في إطلاقِ اللِّباسِ:

دفـعُ أوهـامِ العقائدِ المُنحرفة في وصفِ اللَّيل

في وصفِ اللَّيل بـ(اللِّباس) في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ردٌّ ضمنيٌّ على معتقداتِ المَجوس والدّهريين الَّذين يزعُمونَ أنَّ اللّيل كيانٌ شرّيرٌ مُستقلٌّ، فجاءَ الخطابُ القرآنيُّ لبيان أنَّ اللَّيل خَلْقٌ نافع، مُسخّرٌ للرّاحة والسُّكون، ومن آياتِ الرَّحمة لا من مَظاهِرِ الشّرِّ؛ ففي جعل ﴿ٱلَّيْلَ﴾ محلًّا للامتنان والمنفعة تعريضٌ بهم، وتسجيلٌ عليهم[2].

بلاغةُ عطفِ آيةِ النَّهار على آيةِ اللَّيل:

عـطـفُ المُتضادّات لبيان كـمـالِ النِّـعَـم والعَطاءات

لمّا ذكر خلقَ نظامِ اللَّيل في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ قوبلَ بخلقِ نِظامِ النَّهار ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، فالنّهار: الزّمانُ الَّذي يكون فيه ضوءُ الشّمسِ مُنتشرًا على جزءٍ كبيرٍ من الكرة الأرضيَّة، وفيه عِبرةٌ بدقّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذ جعلَ نظامين مُختلفَين؛ منشؤُهُما سُطوعُ نورِ الشَّمس واحتجابُهُ فوقَ الأرض، وهما نِعمتانِ للبَشر مُختلفتانِ في الأسباب والآثار، فنعمةُ اللَّيل راجعةٌ إلى الرّاحة والهُدوء، ونعمةُ النّهارِ راجعةٌ إلى العمَلِ والسّعي؛ لأنَّ النّهارَ يعقُبُ اللّيل، فيكونُ الإنسانُ قد استجدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه ليتمكَّنَ من مُختلَف الأعمال بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرُق[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 18، 19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 20، 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 21.

بلاغةُ التَّشبيهِ وغرَضُه في (النَّهار معاشٌ):

النّـهـارُ مَـصـدَرُ العَيشِ الحَلال، والـسّـعـي في دروبِ الحَياة بلا ضَلال

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ تشبيهٌ على اعتبارِ أنّ المَعاش بمعنى الحَياة، فيكون المعنى: جعلنا النَّهارَ حياةً لكم، فشُبّهتِ اليقظةُ الَّتي تكون في النّهار بالحياةِ نفسِها؛ لأن باليقظةِ يظهَرُ نشاطُ الإنسان وحركتُهُ، وكأنَّ النّهار نفسَه صارَ حياةً متجدّدةً. والتّشبيه بليغٌ، حُذفتْ منه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشَّبه، فأُثبتَ المُشبَّهُ به (الحياة) للمُشبَّه (اليقظة في النّهار)، ووجهُ الشّبه: ظهورُ الحركةِ والنَّشاطِ والقُدرة على العمَلِ، وهذا التّوجيهُ يدلُّ على صبحِ يومِ القيامة بعدَ لباسٍ وسُباتٍ قبل البعثِ والنّشر، أوْ في الآية مجازٌ على اعتبار أنّ المعاشَ بمعنى (المعيشة) (أي ما به يَعيشُ الإنسانُ من كَسْبٍ ورِزْق)، فيكون وصفُ النّهار بالمعاشِ مَجازًا عقليًا بعلاقةِ السببيَّة؛ لأنَّ النّهار سببٌ للعمَل، والعملَ سببٌ للرِّزق، فكأنّه نفسُ الرِّزق[1].

توجيهُ التَّعبير بـ(المعاش) بين المصدرِ الميميّ، واسمِ الزَّمان:

النّـهـارُ فرصةُ الـسَّـعـي والـكـسْـب، يسّرَها الله لمَن أرادَ وأحَبّ

في كلمةِ (المَعاش) من قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ وجهانِ من حيثُ الدِّلالة الصّرفيَّة:

الوجهُ الأوّلُ: أنَّ (المَعاش) مصدرٌ ميميٌّ من (عاشَ عَيشًا ومَعيشةً)، وعلى هذا فلا بدَّ من تقديرِ مَحذوفٍ، أي: جعلنا النَّهارَ وقتًا للمَعاش، أي: للعَيشِ والكَسْب.

الوجهُ الثّاني: أنَّ (المَعاش) على وزنِ (مَفعَل) (اسمُ زمان)، فيكونُ بمعنى: زمنًا وظرفًا ووقتًا للعيش. وعلى هذا لا حاجةَ إلى تقديرِ مَحذوف، والمعنى: جعلْنا النَّهارَ نفسَهُ مَعاشًا، أي: ظَرْفًا يعيشُ فيه النّاسُ ويتحرَّكونَ لقضاءِ حَوائِجِهم؛ فالوجهُ الأوّلُ يُفسِّرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.

(المَعاش) مصدرًا يحتاجُ إلى تقديرِ (وقتٍ للعيش)، والثّاني يفسِّرُه كظرفِ (زمانٍ للعَيش والعمَل)[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في ذكر آية اللَّيل وآيةِ النَّهار:

مِن النِّعَم اللَّطيفة توزيعُ الوَقْتِ بينَ السُّكونِ والوَظيفة

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أسلوبُ احتباكٍ، وهو أنْ يُذكَر في كلِّ جملةٍ شيءٌ ويُحذَفَ مُقابلُه اعتمادًا على ذِكره في الجملةِ الأُخرى؛ فذكرَ في الأوّلى: ﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ وهذا يدلُّ على حذفِ مُقابلِه في الثّانية، أي: وليس معاشًا. وذكر في الثّانية: ﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، وهذا يدلُّ على حذفِ مُقابلِه في الأوّلى، أي: وليسَ لِباسًا. فكأنَّ المعنى الكامل: وجعلنا اللَّيلَ لباسًا لا مَعاشًا، وجعلنا النّهارَ معاشًا لا لباسًا، وهذا من بلاغةِ القرآن إذ جمعَ المعنيينِ معَ الإيجاز[2].

نكتةُ إيثارِ فعلِ (الجعل) مع اللَّيل والنَّهار:

فعلُ الجَعل كيفيّ، وفعلُ الخَلْق تكوينيّ

اختيرَ فعلُ (جَعَلنا) بدلًا من (خلقْنا) في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ لأنَّ النّومَ واللِّباسَ والمَعاش صفاتٌ وأحوالٌ وأوصافٌ تَقتضي فعلَ الجَعْلِ الَّذي يُناسِبُ الكيفيّات، لا الخلقَ الَّذي يختصُّ بالذَّوات إيجادًا.

نكتةُ عدمِ إضافةِ (اللَّيل والنَّهار) كما أُضيفَ (النّومُ):

النّوم نعمة شخصيّة لا تغيب

أُضيفَ (النّوم) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ﴾، لا لتخصيصِ نومِ الإنسانِ دونَ غيره، بل لتقويةِ دلالةِ الامتنانِ والتّذكيرِ بالنِّعمةِ الخاصَّةِ بهم، فكلُّ حيوانٍ ينامُ نومَ السُّبات، ولكنْ ذكرَ الإنسانَ تنبيهًا على أثر هذه الحالِ فيه. ومع ذلك لم يُضفْ إليهم اللَّيل والنَّهار كما أضافَ النّوم، فلم يقل: (وجعَلنا لَيلَكُم.. وجعلنا نهارَكُم)، والنُّكتةُ في ذلك: أنّ النّومَ أمرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 10.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 21/ 197.

شخصيٌّ يقعُ على كلِّ فردٍ، والإنسانُ يُحسّ بآثارِهِ في بدنِهِ، فهو نعمةٌ ذاتيّة لصيقةٌ به. فجاءتِ الإضافة ﴿نَوْمَكُمْ﴾؛ ليَستحضِرَ المُخاطَبُ إحساسَه بنفسِهِ في حالِ السُّبات، فيدركَ النّعمةَ أقوى إدراك، أمّا (اللَّيل والنّهارُ) فهما ظاهرتانِ كَونيّتانِ عامّتان، ليستا مُختصَّتينِ بالإنسان وحدَهُ، ولا يشعُرُ كلُّ فردٍ بملكيّتِهما كما يشعُرُ بملكيّته للنّوم، إذ لا يقالُ عادةً: (ليلي ونهاري) إلّا مَجازًا، بل اللّيل والنّهار مِظلّتانِ للجميع؛ إنسًا وجنًّا وحيوانًا، فتركُ الإضافةِ ليبقى المعنى على عمومِهِ ويشملَ كلَّ المخلوقات، وليظلّ السّياق في ذكرِهما على صفة التّهيئةِ العامَّة لا النِّعمة الخاصَّة. فالمعنى: ﴿نَوْمَكُمْ﴾: نعمةٌ شخصيّةٌ - أضيفتْ لزيادةِ الامتنان، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ﴾: نعمتانِ عامّتانِ كونيّتانِ - لم تُضَفْ لإبقاءِ العُموم.

بلاغةُ (الاكتفاء) بينَ أطرافِ المُقابلة في النّظْمِ:

التّرتيبُ البيانيّ يكشِفُ وجهَ المُقابلة الدّلاليّ

جاءَ ذكرُ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ بعد ذكر كلٍّ من النّوْمِ واللَّيل، في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ ليُفهم منهُ أنَّ النَّهار هو بدءُ زمنِ اليَقظة الّتي هي ضدُّ النّوم، فكأنَّ التقدير: (وجعلنا النّهار واليقظة فيه معاشًا)، وهذا من بابِ الاكتفاءِ البلاغي[1]؛ حيث يُذكرُ أحدُ الضدَّين ويُراد معه الآخَرُ لدلالةِ السّياق. ومن هذه المقابلةِ الدَّقيقة حصلَ نوعٌ من المطابقةِ البيانيَّة بين الجمل الثلاثِ: (النّومَ سباتًا) و﴿ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، إذ فيها تقابلٌ لفظيٌّ ومعنويّ، يجمَعُ بينَ تقابُلِ الأحوالِ البشريَّة (نوم، يَقظة)، وتقابلِ الأزمنةِ الّتي تقَعُ فيها (ليلٌ، نهار)، وتقابلِ الغايات (سُكون، سَتر، عمَل)، فكان في ذلك إحكامٌ بديعيٌّ بليغ[2].

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 118، وابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/ 282، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 335.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 21.

دِلالةُ الجَمْعِ بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ و﴿ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ مقابلةٌ جامِعةٌ بين سترِ اللَّيلِ وسُكونِه، وسَعْيِ النَّهار وحركتِه، وتوسِّل في ذلك بتعبيرينِ مُتقابلينِ هُما (اللِّباس) و(المَعاش).

أفعالُ المنّان تَشتمِلُ على كلِّ إحسان

دلالةُ مُقابلةِ المَعاش في النَّهار للسُّبات في اللَّيل:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، وقولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ ذُكِرَ (المَعاشُ) وجاءَتِ المُقابلةُ مُحكَمةً بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ الدّالّ على: السُّبات، والسُّكون، والسّتر، والرّاحة، وبينَ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ الدّالِّ على: المَعاش، واليقظَة، والكَشف، والحرَكة؛ ليدُلّ ذلك على تقسيمِ الخلقِ بينَ انطِواءٍ وظُهور، وسُكونٍ وحَرَكةٍ، ومَوْتٍ وحَياةٍ، بما يَجري مُجرى آياتِ البعثِ والنُّشور.

من أوجدَ المُتضادّات قدَرَ على هَذْمِ تلك الكائنات

دلالةُ التّعبير بفعلِ (البِناء) في ﴿وَبَنَيۡنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ جاءَ التّعبيرُ بالفعل الماضي (بنينا)؛ للدِّلالة على خلْقٍ مُحكَمٍ مُرتفِعٍ، يُشبِهُ ما تُشاهِدُهُ الأبصارُ من القِبابِ المُشيّدة فوق الأرض، فجُعلتِ السَّماءُ كأنَّها مَبنيّة عاليةٌ تُشرِفُ على النّاس، وهذا تجسيدٌ تصويريٌّ يقرِّبُ المعنى إلى الأذهان برَبْطِهِ بما يُرى ويُحَسّ.

استدعاء صورة البناء العالي لإثارة النَّظر والاعتبار

نكتةُ التّعبيرِ بفعلِ (البِناء) دونَ (الخلْق):

لم يقُلِ النّظمُ الكريمُ: (خَلقنا سَبْعًا شِدادًا) أوْ (جَعَلنا)، بل قالَ: ﴿وَبَنَيۡنَا﴾؛ لتصويرِ الرِّفعة والإتقان، ولإبرازِ الهيئةِ التّكوينيَّة للسَّماوات فالبناءُ أخصُّ من الجَعْل والجعلُ أخصُّ منَ الخَلق.

دلالةُ القَيد الظرفيّ ﴿فَوۡقَكُمۡ﴾:

جعلُ هذا البناءِ (السَّماء) فوقَ النّاس بما نطقَ بهِ قولُهُ: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾، فيه إيماءٌ دقيقٌ إلى العلاقةِ بين علوّ المكانِ وعلوّ الشّأن[1].

تحديدُ الفوقيّة دعوةٌ للتّأمُّلِ في العَوالِمِ العُلويّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.

ودعوةٌ صريحةٌ للتّأمُّلِ في العوالمِ العُلويَّة، كما اشتملَتِ الآياتُ السّابقةُ على دعوةٍ للتّأمُّلِ في العوالمِ الأرضيَّة والنّفسيَّة.

بلاغةُ التّشبيه المكنيّ في ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ تشبيهٌ مكنيٌّ حيثُ ذُكِرَ في التّركيب المُشبَّهُ وحُذِفَ المُشبَّهُ به، مع إبقاءِ لازم من لوازمِه؛ فذُكِرتِ السّبعُ الشِّداد (المُشبَّه)، وحُذف المشبَّهُ به (الأبنيةُ المُشيّدةُ فوقَ الرُّؤوس)، وأُبقي لازمٌ من لوازمِه وهو قولُهُ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾، ووجهُ الشّبَه الإحكامُ والمَتانةُ والارتفاعُ فوقَ المُستفيد منه. فالاستعارةُ التخييليّة في: (بَنَيْنا)، إذِ السّماواتُ الشِّداد شُبّهتْ بأبنيةٍ مُحكمةٍ، والبناءُ المُحكَمُ من لوازمِه أنْ يكون مُقامًا فوقَ السّاكنين، ولهذا ذكرَ ﴿فَوْقَكُمْ﴾، لتنبيهِ السّامع بواحدةٍ من أهمِّ خصائص البناءِ الحقيقيّ، وهو أنَّه يَعلو على مَن يسكُنُ تحتَهُ.

البناءُ المُحكَمُ المتين، يكونُ مُقامًا فوقَ السّاكنين

بلاغةُ الإيماءِ إلى وجهِ الشَّبه في ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾:

هذه الفوقيَّةُ المُصرّحُ بها في قولِه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ هي إيماءٌ ورمزٌ لوجهِ الشّبَه المَحذوف، ولو قيلَ: ﴿وَبَنَيْنَا﴾ من غيرِ ﴿فَوْقَكُمْ﴾، فقد يخطُرُ ببال السّامع أيُّ بناء، سواءٌ فوقَهُ أوْ حولَه. لكنَّ القرآنَ أضافَ ﴿فَوْقَكُمْ﴾ ليقرّبَ الصّورةَ الذّهنيَّة من البناءِ الّذي يظلّل ويعلو المستفيدَ منه. وهذا الارتفاعُ جزءٌ من وجهِ الشّبَه الّذي من أجلِه أطلقَ (بَنَيْنا) على السَّماء. فكلمةُ ﴿فَوْقَكُمْ﴾ لا تصرّحُ بوجهِ الشَّبه كاملًا، لكنّها تلمّحُ إليه، فتشيرُ إلى أنَّ المقصودَ بالبناء هنا هو ما يُشيَّد عاليًا على المستفيد – مثلُ القُبَّة أوِ السَّقف – وليس أيَّ نوعٍ من البناء. ولو أرادَ التّصريحَ لقيل مثلًا: (بَنَيْناها محكمةً عاليةً فوقكم)، فحينئذٍ يصيرُ وجهُ الشّبه مذكورًا لفظًا. لكنَّه لم يقل ذلك، بل اكتفى بـ ﴿فَوْقَكُمْ﴾، وهي كلمة موجزةٌ تكفي لأنْ توقِظَ في ذهنِ السّامع صورةَ البناءِ

خلقُ السَّماوات دليلٌ على موجِدِ الكائنات

المُرتفع، وهذا الإيجازُ مع الإشارةِ غيرِ الصَّريحة هو ما يُسمّى بلاغةَ الإيماءِ إلى وجهِ الشَّبه[1].

الغرضُ من اختيارِ لفظِ (البِناء):

إحكامُ بناءِ السَّماء يُشعِرُ ببُعدِها عن الانمِحاء

التّعبيرُ بمادّة (البِناء) في قولِه تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ بدلًا من أنْ يُقالَ مثلًا: (وجعلنا فوقكم سبعًا شدادًا)؛ إشارةٌ إلى نكتةٍ معنويّةٍ بديعة، إذ البناءُ يوحي بالتّماسُك الشَّديد والصَّلابة والدَّيمومة، بخلافِ (الجعل) الّذي قد يوهِمُ بإمكانِ الانهيار والانحلال، فمعَ أنَّ السَّماء سقفٌ للخلق، فإنَّ استعمالَ لفظِ (بنينا) دالٌّ على أنَّها لا تُشبِهُ السُّقوفَ المُعتادة، بل هي في إحكامِها وتماسُكِها وامتناعِها من الزَّوال كالبناءِ المُحكَم بل أشدُّ؛ فالغرضُ من اختيار لفظِ (البناء) ليسَ مجرّدَ تشبيهٍ بالقِباب المُشاهدة، بل أيضًا للتّعبيرِ عن الاستقرارِ المُطلَق والبُعدِ عن كلِّ خَلَلٍ[2].

نكتةُ تقديمِ الظَّرف على المفعولِ:

تحقيقُ التّشويق، بترسيخِ التّفصيلِ الدَّقيق

في قولِه تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ قُدِّمَ الظّرفُ ﴿فَوْقَكُمْ﴾ على المفعولِ: ﴿سَبْعًا﴾، ليسَ لمُراعاةِ الفواصلِ فحسب، بل تشويقٌ للنّفس وإثارةٌ للتّرقُّب، فحين يسمَعُ السّامعُ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ يتولّدُ في نفسه سُؤالٌ: ما الَّذي بُني فوقَنا؟ فتظلُّ النّفسُ متطلِّعةً إلى الجواب، مُتشوّقةً إلى تمام المعنى، فإذا قيلَ بعدَ ذلك: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾، وقع الكلامُ في النَّفس مَوقِعًا أبلغَ وأشدَّ تأثيرًا، وتمكّن المعنى رُسوخًا، وهذا التَّشويقُ يُعينُ على إرساءِ المَعنى الإيمانيِّ في القلوب، فإنّ ما يَرِدُ بعدَ التّرقُّب يَثبُتُ أثرُه أكثرَ، ويَعظُم حُضوره في النّفْس[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 10.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87.

إضمارُ المَوصوفِ لدِلالةِ السّياق في ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾:

إيجازُ العِبارة في الرَّمزِ بالإشارة

في قولِهِ تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ أُريدَ بها السَّموات، وقد حُذِفَ الموصوفُ (السّماوات) واعتُمِدَ على الصِّفة وعدَدِها للدِّلالة عليه؛ لأنَّ المقام والسّياقَ يُرشّحان ذلك، ونظير ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11] أي: السَّفينة، فذُكرت الصِّفة (الجارية) مع حذفِ المَوصوف (السَّفينة) لعلْمِ السّامعِ بهِ[1].

مُطابقةُ العدَدِ للمَوصوف المَحذوف في ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾:

إضمارُ المَوصوف، إيجازٌ بلا خَلَلٍ مَعروف

لأجلِ أنَّ الموصوفَ المَحذوفَ هو السّموات، وهو لفظٌ مؤنّثٌ، جاءَ العددُ مُطابقًا له تأنيثًا، فقيل: ﴿سَبْعًا﴾ لا سبعةً، وهذا من دقّةِ القرآن في مُطابقةِ الحذف لما يدلُّ عليه السّياق من جهة اللَّفظِ والمَعنَى معًا[2].

دلالةُ الاستعارةِ التّصريحيَّة التّبعيَّة في ﴿وَبَنَيۡنَا﴾:

مَن قَدَر على البناء، فهو قادِرٌ على المَحوِ لهُ والإفناء

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (بنينا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا﴾؛ للدِّلالة على الإيجادِ والتّكوين؛ إذ شبَّهَ النَّظمُ الإيجادَ والأمرَ التَّكوينيّ بالبناءِ ثمَّ حذفَ المشبَّه وأبقَى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ من التَّشبيهِ الدِّلالة على أنَّ ذلك التّكوينَ السّماويّ بناءٌ مُستعلٍ يُخشَى سقوطُهُ على الأرض، وأنَّ الأمرَ التّكوينيَّ كانَ إنشاءً لأمرٍ مُحكَمٍ مَتين، وذلك الصُّنعُ دليلُ الإتقان والإحكام، ومَن قدَرَ على البناءِ بالأمرِ التّكوينيّ فهو قادِرٌ على المَحو له والإفْناء.

دلالةُ اختيارِ (جعَلْنا) دونَ (خَلَقْنا):

الوَهَجُ الشَّديد حالٌ لذلك الحرِّ المَديد

اختيرَ الفعلُ (جعَلْنا) بدلَ (خَلَقنا) في قولِهِ: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ تصويرُ حالِ الشَّمس في كونِها سِراجًا وهّاجًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22، 23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 22، 23.

لا ذاتِها المَخلوقةِ، ففعلُ (جعلَ) أنسبُ في التّعبير عن الأوصافِ والأحوال، بخلافِ (خلَق) الّذي يتعلَّقُ بإنشاءِ الذّوات[1].

سرُّ إيثارِ التّعبير عن الشّمسِ بوَصفِ ﴿سِرَاجًا﴾:

الشّمسُ مِصباحٌ عظيم دالٌّ على الإنشاءِ القَويم

السرُّ في إيثارِ التّعبير عنِ الشّمسِ بلَفظ ﴿سِرَاجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ كونُها ليستْ مجرَّدَ جسم مُضيءٍ، بل هي بمنزلةِ المِصباح العَظيم الّذي يَنتشرُ ضياؤُهُ ويَملأُ الأرجاء، فيَبعثُ الحياةَ والنّورَ والدِّفْء، ذلك أنّ السِّراجَ هو المِصباحُ الزّاهِر ذو الضّياءِ والحُسْن[2]. ثمّ جاء وصفُها بـ ﴿وَهَّاجًا﴾ ليدلَّ على قوّةِ ضيائِها وحرارتِها الدّائمةِ المتدفِّقة، بخلافِ السِّراج العاديّ الّذي قد يَخبو؛ فالوَصفانِ معًا يُصوِّرانِ الشّمسَ كأنّها سِراجٌ هائلٌ لا يَنطفِئُ، فيه نورٌ وحرارةٌ تُقيمانِ الحياةَ.

الدّلالةُ الصّرفيّة لـ﴿وَهَّاجًا﴾:

شـدّةُ التـوهُّج لعظيمِ التّأجُّج

الوصفُ ﴿وَهَّاجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ (فعّالٌ) فيه مُبالغةٌ، وهو إمّا من الوَقود والتّلألؤ، أي: كثيرُ الإضاءَةِ والاشتعال، من وهَجَتِ النّارُ إذا أضاءَتْ، أوْ من الحرارةِ الشّديدة، أي: بالغةُ السُّخونةِ؛ من الوَهْج وهو الالتهابُ والحَرُّ، والمَقصودُ به الشّمسُ[3].

سرُّ إيثارِ الاقتصارِ على ذِكر الشّمسِ دونَ القَمَر:

الحرارةُ والضّياء أسـاسٌ لبـقاءِ الأحياء

السرُّ في الاقتصار على ذكرِ (الشّمس) دونَ (القمَر) في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أنَّ السّياق هنا في تَعدادِ دلائلِ القُدرة على البَعث بذكرِ أعظَمِ المخلوقات وأقواها أثرًا في حياةِ النّاس، فالشّمسُ هي المصدرُ الأعظَمُ للنّور والحرارة والطّاقة، ومِنها تنبثق حياةُ الأرضِ كلِّها، فهي أشبَهُ بالقلبِ النّابض إلى الأرض، وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 24.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرج).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل: 9/ 87، والجوهريّ، الصّحاح: (وهج).

القمر فنورُهُ مُستفادٌ من الشَّمس، وأثرَهُ أقلُّ، وقد ذُكر في مَوضِعٍ آخرَ مُناسبٍ لهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]. فناسَبَ الاقتصارُ هنا على ذكر الشّمسِ وحدَها تعظيمًا للدِّلالة وإبرازًا للأقوى أثَرًا والأظهَرِ بُرهانًا.

التّشبيهُ البليغُ في ﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾:

تشبيهُ الشَّمس بالسِّراج المَحدود، دالٌّ على أنّها لا تستحِقُّ السُّجود

شُبِّهتِ الشّمسُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ بالسِّراج، وهو المِصباح الَّذي يُستضاءُ به، فالتّشبيهُ بليغٌ، حُذِفَ منهُ وجهُ الشَّبه وأداةُ التّشبيه، والغرضُ منه تقريبُ صورةِ الشَّمس إلى الأذهانِ من خلال مثالٍ مَحسوس، ثمَّ زيدَ في ذلك التّقريب بوصفِ السِّراج بـ(الوهّاج)، أي: المُتوقِّدُ المُتلألئُ الشَّديدُ السَّنا؛ ليفيدَ فرْطَ الضّياءِ وشدَّةَ التّأثير[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 24.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"